5

سنوات مندل الأخيرة

جعل الصراع الدائر بين مندل والحكومة الجديدة في فيينا سنوات مندل الأخيرة صعبة، ذلك أن تلك الحكومة وضعت قانوناً عام 1875 يجبر دور الرهبان على دفع ضرائب عن ممتلكاتها، 7،330 غلدرية سنوياً بالنسبة لدير برنو. كان مندل هو رئيس الدير الوحيد في البلاد الذي رفض أن يقبل القانون، ولقد حافظ على موقفه حتى وفاته. تجادل معه أشخاص آخرون في الموضوع. أشار أفراد الجماعة إلى أن حزب الأحرار الذي دعمه مندل هو الذي أصدر ذلك القانون. أخبره المحامون أنه لن يستطيع أبداً أن يربح ذلك النزاع. أصر مندل وأصبح يعرف «بالمطران العنيد». قال مندل في عريضة كتبها إلى الحكومة عام 1877، أنه وبسبب هذا النزاع «قد شاب وأصبح عجوزاً قبل أوانه»، وأصبح الناس ينظرون إليه

OBEIKAN.COM

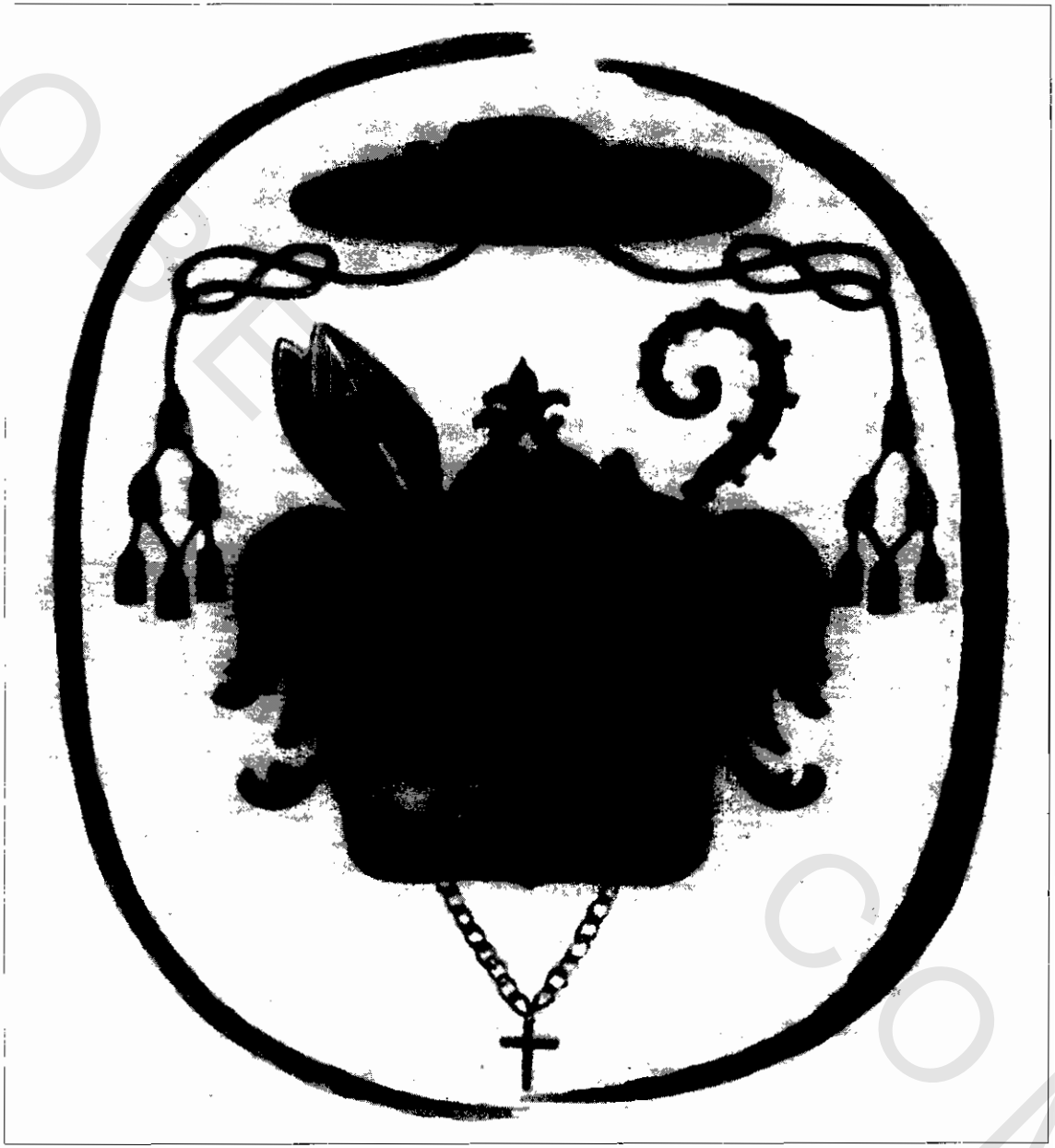

شعار رئيس الدير غريغور مندل الرسمي. تظهر في الزاوية العلوية اليسرى من صدر الشعار أزهار الفوشية التي اختارها كشعاره الشخصي. يمثل حرفا الألفا والأوميغا ، في الزاوية السفلية اليمنى، وهما أول وآخر حرف في اللغة اليونانية، الإيمان بأن الله هو الأول والآخر.

على أنه شخص غريب الأطوار. كتب أحد المحامين عنه أنه «مليء بالشك ويرى أنه غير محاط سوى بالأعداء والخونة والمخادعين».

مع ذلك استمر مندل في رفضه إلى أن مات. كتب آخر اعتراض له على فرض الضرائب على الدير في أيار عام 1883. في حزيران، سألت الحكومة المحلية أسقف برنو ما إذا كان يستطيع القيام بأي شيء لفض النزاع، مشيرة إلى أن مقدار الضرائب يمكن أن يخفض كثيراً. في غضون ذلك، كان مندل مريضاً جداً بحيث أن الشؤون الاقتصادية للدير كانت تدار من قبل راهب آخر هو أمبروز بويه. عندما تلقى بويه رسالة رفض لاحتجاج مندل، فإنه لم يره إياها. بدلاً من ذلك أعاد الرسالة إلى الحكومة قائلاً أن رئيس الدير مريض جداً، وأرفقها برسالة من طبيب مندل يقول بأن مندل مصاب «بحالة ينبغي فيها أن يكون في راحة مثالية، وأنه يجب تجنب أي انزعاج عاطفي». أرسل بويه احتجاجاً إلى فيينا، يتذمر فيه على مقدار الضرائب المفروضة. دفع خَلَف مندل الضريبة المطلوبة، لكن الدير عُفي من الدفع في النهاية لمدة عشر سنوات تبدأ من عام 1880.

لا يزال بالإمكان رؤية بعض الأعمال التي قدمها مندل للدير. عندما خرب الإعصار سقف قاعة الاجتماع في الدير عام 1870، لم يكتف رئيس الدير مندل بإصلاحه فحسب، لكنه زيّن السقف برسوم اقترحها هو. كان في

منتصف السقف رسم للقديس أوغستين وأمه مونيكا. وكانت اللوحات على الزوايا الأربعة تعكس اهتمامات مندل العلمية. أظهرت إحداها تطعيم شجر الفواكه. وأظهرت الأخرى أدوات الأرصاد الجوية المكونة من كرة أرضية وخرائط. وأظهرت صورة ثالثة خلية نحل قديمة وأخرى حديثة، بينما أظهرت الرابعة القديس إيزيدور الذي تولى الزراعة. عندما أعيد ترميم القاعة بعد سنوات عديدة، أزيلت اللوحات، لكن أحد الرهبان كان بعيد البصيرة بحيث أنه أخذ لها صوراً فوتوغرافية. في النهاية، عندما ذاع صيت مندل، أعيد رسم الصور. يمكن للزوار أن يروا تلك الصور اليوم، ويمكنهم أيضاً أن يروا الصور الأصلية التي طلبها مندل لمكتبة الدير، والتي نجت دون أن يمسها أي أذى.

لوحتان من صور السقف التي تبرع بها مندل لدير برنو. يظهر في هذه الصفحة القديس إيزيدور، الذي تولى الزراعة. في الصفحة التالية: خلية النحل القديمة والحديثة.

كما أن الأب مندل كان شخصاً جيداً لعائلته. فلقد تكفل مالياً بدراسة أبناء شقيقته تيريسا الثلاثة في مدرسة الجمنازيوم الثانوية في برنو. كما أنه ساعد على دخول الابن الأكبر جوهان إلى جامعة برنو التقنية وقدم مساعدة مالية للأخوين الأصغرين عندما درسا الطب في فيينا. كانت إحدى آخر رسائله التي كتبها موجهة إلى ابن شقيقته ألواس شندلر، وهو طبيب وأستاذ في الأمراض الداخلية، يسأله

OBELIKA.COM

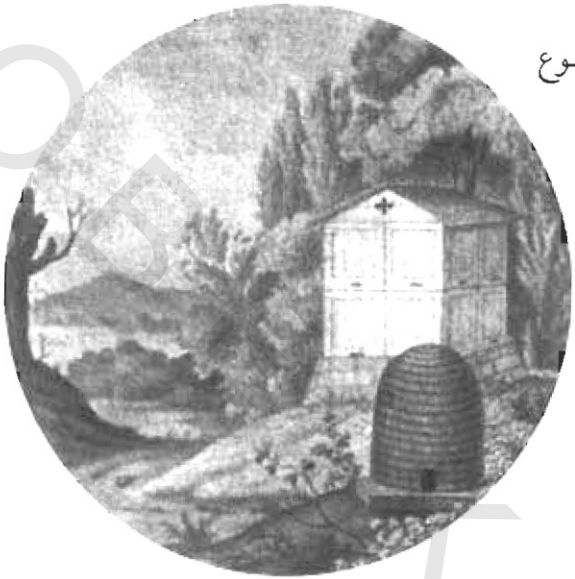

أن يأتي إلى برنو للحديث عن موضوع مهني مهم. كان الموضوع هو علاج مرض كلوي كان مندل مصاباً به. أخبره ألواس بأنه لا يمكن تقديم الكثير من العلاج. قال ألواس بأن خاله انتظر الموت دون أن يبدي أية أحاسيس، وكأنه أمر لا بد أن يحصل. لكن مندل أصر على إجراء تشريح للجثة لتحديد طبيعة المرض الذي سبب وفاته.

لم تُعرف جميع هذه التفاصيل إلاّ بعد عدة عقود لاحقة، عندما ثبتت عظمة مندل كعالم. فجأة، أصبحت الذكريات نصف المنسية عنه أموراً مهمة.

كان رئيس الدير مندل قد سقط طريح الفراش عام 1883، حين أصبح مرض الكلية الذي يعاني منه أكثر حدة. ذهب إلى منتجع في مدينة روزنوف في صيف ذلك العام للاستجمام، لكن الزيارة لم تفده كثيراً. بحلول الخريف لم يعد قادراً على الخروج إلى حديقة الدير. في 20 كانون الأول، كتب رسالة إلى تلميذ سابق له يقول بأنه لم يعد قادراً على القيام بملاحظاته عن الطقس، مستخلصاً أنه «حيث أننا على الأرجح لن نلتقي مرة أخرى في هذا العالم، دعني أنتهز هذه الفرصة لأتمنى لك السعادة، ولأتمنى أن يضع الله فيك جميع بركات

كتب الدكتور ألواس شندلر (إلى اليسار)، ابن شقيقة مندل، سيرة حياة مندل عام 1902. كانت تلك السيرة أساس الكثير من المنشورات في الكثير من الدول، مع تزايد اهتمام العلماء الآخرين بعمل مندل.

مندل موجهة إلى ابن شقيقته، ألواس شندلر، يسأله فيها أن يأتي إلى برنو. لبى ألواس الطلب وقام بالرحلة ولاحظ أن مندل كان ينتظر الموت برزانة، مع معرفته بعدم وجود أي تحسن في حالته الصحية. ساءت حالة مندل الصحية في 4 كانون الثاني عام 1884، وتوفي بعد يومين في

شخّص سبب وفاة مندل على أنه التهاب مزمن في الكليتين وضخامة غير طبيعية في القلب. وصلنا حديثاً وصف للحظات وفاته، كتبه مواطن محلي في برنو: «كانت والدتي كثيراً ما تتحدث عن مندل في ساعاته الأخيرة، لأن مهمة العناية به أوكلت إليها وإلى إحدى الراهبات. غسلت الأربطة التي كانت ملفوفة على أقدام مندل والتي كان من الضروري أن تبدل عدة مرات في اليوم. كان يعاني من فقدان الماء، وبشكل أساسي من قدميه. كان المرض مؤلماً ومعنّداً، لكنه كان نادراً ما يتذمر. أمضى معظم الوقت جالساً على أريكة، وكان يذهب إلى السرير فقط عندما يحس بالنعاس. كانت الأربطة جافة تماماً يوم وفاته. قالت والدتي له «يا سيدي، ليس هناك أي ماء اليوم» أجاب رئيس الدير مندل «نعم، إنها أفضل اليوم». عندما جاءت الممرضة لتصلح شأن السرير. وجدته على الأريكة ميتاً.

جرت مراسيم الجنازة يوم 9 كانون الثاني. حضر الجنازة مسؤولون من الدولة، ورجال الدين الكاثوليك ورجال دين من الطوائف الأخرى، وممثلون عن العديد من المنظمات التي كان مندل عضواً فيها، وعدد من الفقراء الذين كان مندل يحاول دائماً مساعدتهم. بعد مراسيم الجنازة، شيع الحاضرون التابوت إلى المقبرة المركزية، حيث وضع التابوت في قبر الدير. لا يزال بالإمكان رؤية ذلك القبر في الزاوية الشمالية الشرقية من المكان.

قدمت جريدة محلية تعازيها: «إن موته يحرم الفقراء

OBEIKAN.COM

دفن غريغور مندل في مدفن الدير في المقبرة المركزية في برنو.

من كفيل، والبشرية ككل من رجل يتصف بأسمى الصفات، من رجل كان صديقاً حميماً ومشجعاً للعلوم

كتب كليمنز جانتشك، أحد رهبان الدير قصيدة بعد وفاة مندل واصفاً إياه بأنه:

رقيق، مبسوط اليدين، لطيف مع الفرد والجماعة،

أخاً وأباً، كان للأخوة في الصناعة.

الزهور يحبها، وحماية القوانين من الظلم دربه

وعندما أنهكه الزمن، مات من جرح قلبه

ذكر أطول نعي، نشرته الجمعية الزراعية المحلية، عام 1859 أن مندل قد زرع «نباتات رائعة،» وأن كل شيء قام به «كان له أهمية عملية». وأضاف النعي بشكل عابر أن تجاربه على النباتات الهجينة «قد فتحت عهداً جديداً». قال النعي أن «الأب غريغور مندل لم يقنع من الحياة بكلمات لا حياة فيها، لكنه انهمك بشكل فاعل في القضايا الزراعية في مورافيا كلما سنحت الفرصة، مبدياً اهتماماً عظيماً في كل تلك القضايا على الدوام».

يبدو أن القصيدة، وجميع ما كتب في نعيه لم يصلوا إلى النقطة المنشودة. مضى عمل مندل العلمي المهم دون أن يدرك وقت وفاته. كان العالم ينظر إلى مندل على أنه رجل دين قام ببعض الأبحاث العلمية المثيرة للاهتمام لكنها بسيطة. ذكرنا أن أحد الرهبان تحدث عما قاله مندل عن عمله العلمي . «لقد جلب لي عملي العلمي الكثير من الرضى، وأنا متأكد أن العالم بأسره سرعان ما سيدرك هذا».

إذا كان يوجد أي شك حول تلك العبارة، فإن السبب

OBEIKAN.COM

هو أنها كانت صادقة جداً. كان يوم مندل المشهود لا يزال في الانتظار. لم تذكر رسائل النعي التي وصفت محاسن أعمال مندل، بما فيها عمله العلمي، أي شيء عن موجودات مندل في الوراثة، وهي الموجودات التي تستحق أن يُذكر مندل بسببها لسنوات طويلة، بعد أن أدرك العالم ببطء عمله الذي طال إهماله. إن عودة اكتشاف عمله بعد وفاته تروي قصة بديعة.

OBEIKAN.COM